الطاهرة رضي الله عنها

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قايد الحاسري

دار القمة
الإسكندرية

دار الإيمان
الإسكندرية

Scanned by CamScanner

الطاهرة

كتبه

أبو عبد الله فيصل بن عبده قايد الحاشري

عفا الله عنه

دار القمة
للتوزيع الكتاب والشرط والتسجيل
ت: ٢٢٢٠٠٢ ت: ٥٤٧١١٦٩

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ٥٤٥٧٧٦٩

مقدمة

حَمْداً للهِ عَلَىٰ نَعْمَائِه ، وَصَلاةً وسَلامَاً عَلَىٰ خَاتَمَ أَنْبِيَائِه ، وَعَلَىٰ آله وَعِتْرَتِه ونِسَائِه ، وَمَنَ هَدَىٰ هَدْيَهُ مِنْ أَصْحَابِه وَأَوْلِيَائِه .

أَمَّا بَعْدُ :

أَلا أَيَّتُهَا الأُخْتُ الغَالِيَةُ ، فَحَيَّاكِ اللهُ وَبَيَّاكِ ، وَسَدَّدَ عَلَىٰ طَرِيقِ الحَقِّ خُطَاكِ ، وَجَعَلَكِ عَفِيفَةً طَاهِرَةً خَفِيَّةً فِي مَسْعَاكِ .

هَا أَنَا أَضَعُ بَيْنَ يَدَيْكِ رِسَالَةً مَوْسُومَةً بـ « الطَّاهِرَةُ » فِيهَا تَرْجَمَةُ شَخْصِيَّةٍ عَظِيمَةٍ جَلِيْلَةِ الْقَدْرِ ، لاَ مَثِيْلَ لَهَا فِي أُمَّتِنَا الإِسْلامِيَّةِ ، وَالَّتِي تَتَمَثَّلُ فِي شَخْصِيَّةِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ خَدِيْجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ - رضي الله عنها - .

لَقَدْ ضَرَبَتْ هَذه المَرأَةُ أَرْوَعَ الأَمْثلَة في الصَّبْر والثَّبَات ، ومُوَاسَاة الزَّوْجِ وَتَثْبيتِه ؛ فَكَانتْ جَديرَةً بأَنْ تَكُونَ مَثَلاً للنِّسَاء .

فَيَا نِسَاءَ الدُّعَاة، وَالعَاملينَ ،والصَّالحيْن، وَالمَشايخَ، وَطَلَبة العلْم ، تَعَلَّمْنَ منْ خَديْجَةَ - رضي الله عنها - كَيْفَ تُرحْنَ أَزْوَاجَكُنَّ في بُيُوتهمْ ، كَيْفَ تُعنَهُمْ عَلَىٰ أَدَاءِ أَعْمَالهمْ في الخَارِج ، كَيْفَ تَدْفَعْنَ بهمْ إِلىٰ المَعَالي ، كَمَا كَانَ يُقَالُ : « وَرَاءَ كُلِّ رَجُلٍ عَظِيْمٍ امْرَأة » .

فَمنَ الصَّعْب جداً أَنْ يُنْتجَ في عَمَله ، وَأَنْ يَنْتَشرَ نَفْعَهُ في النَّاسِ ، وَهُوَ يُعَاني منْ خَلَلٍ في بَيْته ، وَصرَاعَات نَفْسيَّةٍ ، وَمَشَاكلَ لا حُدُودَ لَهَا ، بَلْ يُرَىٰ أَحْوَجَ مَا يَكُونَ إِلىٰ الإِنْتَاجِ والعَمَلِ مُنْشَغلاً في ذَاتِ نَفْسه ، كُلَّمَا بَنَىٰ زَاوِيَةً ، فَإِذَا بهَا تَنْهَار زَاوِيَةٌ أُخْرىٰ.

نَفَعَني اللهُ وَإِيَّاكُنَّ بمَا في سِيْرَةِ خَديْجَةَ - رضي الله عنها -

العَطِرَةِ مِنْ عِبَرٍ وَعِظَاتٍ .

هَذَا وَاللهَ أَسْأَلُ العَوْنَ وَالسَّدَادَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، وَالتَّجَاوُزَ عَنِ الخَطَإِ وَالزَّلاتِ، والحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ .

وكتبه

أبو عبد الله

فيصل بن عبره قائد الحاشدي

الطاهرة

خديجة الطاهرة

أم المؤمنين خديجة الكبرى عليها السلام

نَسَبُهَا - رضي الله عنها - :

هِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ (١) خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد بْنِ

---

(١) مَعْنَىٰ أُمَّهَات المؤمنين كَمَا في «تَفْسير البَغَويّ» (٣/٥٠٧) :
إِنْزَالُهُنَّ مَنزِلَةَ أُمَّهَاتِهِمْ فِي تَعْظِيم الحُرْمَة، وتَحريم نِكَاحِهِنَّ عَلَىٰ التَّأْبِيد ، لاَ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِنَّ والخَلْوَة بِهِنَّ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فِي حَقِّهِن كَمَا فِي الأَجَانب.
وَلا يُقَالُ لِبَنَاتِهِنَّ، وَلا لإِخوَتِهِنَّ ، وَلا لأَخَوَاتِهِنَّ : أَخَوَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، وأَخْوَالُهم ، وَخَالاتُهُم ؛ فَقَدْ تَزَوَّجَ الزُّبَيْرُ أُخْتَ عَائِشَةَ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ - رضي الله عنهم - ، وتَزَوَّجَ العَبَّاسُ أُمَّ الفَضْلِ أُخْتَ مَيْمُونَةَ ، وَلَمْ يَقُلْ : هُمَا خَالَتَا الْمُؤْمِنِين .
وَهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الرِّجَال دُونَ النِّسَاء ؛ لأَنَّ فَائِدَةَ الأُمُومَة - وَهِيَ النِّكَاحُ - فِي حَقِّ الرِّجَال مَفْقُودة فِي حَقِّ النِّسَاء .
فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ سَعْد فِي «الطَّبَقَات» (٨/٦٤ - ٦٧)، والبَيْهَقِيُّ فِي «السُّنَنِ الكُبْرَىٰ» (٧/٧٠) عَنْ مَسْرُوق :أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ : يَا أُمَّةُ ، فَقَالَتْ - رضي الله عنها -: لَسْتُ لَكِ بِأُمٍّ ، إِنَّمَا أَنَا أُمُّ رِجَالِكُمْ » .
قَالَ ابْنُ القَيِّم فِي « جَلاءُ الأَفْهَام » (ص٢٠٠) : « فَمَنْ فَارَقَهَا فِي حَيَاتِهَا ، وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا لا يَثْبُتُ لَهَا أَحْكَامُ زَوْجَاتِهِ اللاتِي دَخَلَ بِهِنَّ ، ومَاتَ عَنْهُنَّ » .

أَسَد(١) بْنِ عَبْدِ العُزَّىٰ بْنِ قُصَيٍّ (٢) بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ القُرَشِيَّةُ الأَسَدِيَّةُ (٣) .

وأُمُّهَا : فَاطِمَةُ بِنْتُ زَائِدَةَ العَامِرِيَّةُ (٤) .

---

(١) خُوَيْلد بْن أَسَد : هُوَ أَحَدُ وُجَهَاء قُرَيْش وَعُظَمَائهم ، وَقَدْ كَانَ ضِمْنَ الوَفْد الَّذي أَرْسَلَتْهُ قُرَيشٌ إِلَىٰ صَنْعَاءَ لتَهْنئَةَ الملك الحِمْيريِّ سَيْف بْن ذي يَزَن بانْتصَاره عَلَىٰ الحَبَشَة ، وإِخْرَاجهم منَ اليَمَن ، وَذَلكَ بَعْدَ مَوْلد رَسُولَ اللهِ - ﷺ - بسَنَتَيْن .انْظُر: البِدَايَةُ والنِّهَايَة » (٢ / ٧١٩) .
وَهُوَ الَّذي نَازَعَ تُبَّعًا حينَ أَرَادَ أَخْذَ الحَجَر الأَسْوَد إِلَىٰ اليَمَن ، فَقَامَ في ذَلكَ خُوَيْلدٌ ، وَقَامَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ منْ قُرَيْش ، ثُمَّ رَأَىٰ تُبَّعٌ في مَنَامه ، فَنَزَع عَنْ ذَلكَ ، وَتَركَ الحَجَرَ الأَسْوَدَ مَكَانَهُ . انْظُر: المَرجع السَّابق (٢ / ٦٨٥) .

(٢) قَالَ الحَافظُ في « الفَتْحُ » (٧ / ١٦٧) : « تَجتَمعُ مَعَ النَّبي - ﷺ - في قُصَيٍّ ، وَهيَ منْ أَقْرَب نسَائه في النَّسَب ، وَلَمْ يَتزَوَّج منْ ذُرِّيَة قُصَيٍّ غَيْرَهَا إِلاَّ أُمَّ حَبيبَةَ » .

(٣) « سِيرَةُ ابْن هِشَامٍ » (١ / ١٤٢) ، و « أَزْوَاج النَّبيِّ - ﷺ - » للدِّمَشْقي (ص٥٣) .

(٤) « سِيرَةُ ابْن هِشَامٍ » (١ / ١٤٢) .

مَوْلِدُها ونشأتُها - رضي الله عنها - :

وُلِدَتْ فِي بَيْتِ مَجْدٍ وَسُؤْدُدٍ (١) ، قَبْلَ عَامِ الفِيْلِ بِخَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا تَقرِيْبًا ، وَنَشَأَتْ فِي بَيْتٍ مِنَ البُيُوتَاتِ الشَّرِيْفَةِ، فَغَدَتِ امْرَأَةً عَاقِلَةً جَلِيْلَةً ، اشْتُهِرَتْ بِالحَزْمِ وَالعَقْلِ ، وَالأَدَبِ الجَمِّ (٢) ، وَكَانَتْ لِشِدَّةِ عَفَافِهَا وَصِيَانَتِهَا - تُدْعَىٰ فِي الجَاهِلِيَّةِ «الطَّاهِرَةُ» ؛ لِذَلِكَ كَانَتْ مَحَطَّ أَنْظَارِ كِبَارِ الرِّجَالِ مِنْ قَوْمِهَا (٣) .

زَوَاجُهَا - رضي الله عنها - :

كَانَتْ خَدِيْجَةُ - أَوْسَطَ نِسَاءِ قُرَيْشٍ نَسَبًا ، وَأَعْظَمَهُنَّ شَرَفًا ، وَأَكْثَرَهُنَّ مَالاً ، كُلُّ قَوْمِهَا كَانَ

---

(١) السُّؤْدُد - بِضَمِّ السِّين والدَّالِ ، بَيْنَهُمَا هَمزَةٌ سَاكِنَةٌ : الشَّرَفُ والسِّيَادة .

(٢) الجَمّ - بالفتح - الكَثِيْر .

(٣) « نِسَاءٌ حَوْلَ الرَّسُولِ - ﷺ - » (ص٣٧) .

حَرِيصًا عَلَىٰ الزَّوَاجِ مِنْهَا لَو يَقْدِرُ عَلَيْهِ (١) .

تَزَوَّجَتْ عَتِيقُ بْنَ عَائِذ بْنِ عَبْدِ اللهِ المَخْزُومِّي ، فَوَلَدَتْ لَهُ جَارِيَةً اسْمُهَا هِنْدٌ (٢) ، ثُمَّ هَلَكَ عَتِيقٌ عَنْهَا ، فَخَلَفَ عَلَيْهَا أَبُو هَالَةَ بْنُ زُرَارَةَ التَّمِيمِيُّ (٣) ، فَوَلَدَتْ لَهُ غُلامَيْنِ : هِنْدًا (٤) ، وَهَالَةَ

---

(١) « سيْرَةُ ابن هشَام » (١ / ١٤١) .

(٢) هِنْدُ بِنْت عَتِيق : هي أُمُّ مُحَمَّد بْنِ صَيْفِيٍّ ، وقَدْ أسلمتْ وَصَحبَتْ .

(٣) قَدْ جَرَىٰ خِلَافٌ فِي الأَوَّلَ مِنْهُمَا ، والَّذي رَجَّحه ابن سَيِّد النَّاس ، وَرَوَاهُ قَتَادَةَ ، وابْن إِسْحَاقَ : أَنَّ الأَوَّلَ مِنْهُمَا هُوَ عَتِيق ، والثَّانِي أَبُو هَالَةَ .

(٤) هِنْد بْنِ أَبِي هَالَةَ : بِه كَانَتْ تُكْنَىٰ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها ، ذَكَرَهُ النَّوَوِيّ فِي « تَهْذِيبِه » (٢ / ٣٤٢) ، عَنْ عَائِشَةَ ، وابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم فِي تَارِيخ دمشق .
وَقَدْ شَهِدَ - بَدْرًا - ، وَقِيلَ : أُحُدًا ، وَكَانَ فَصِيحًا بَلِيغًا وَصَّافًا ، وَصَفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي حَدِيثِه الطَّوِيل ، فَأَحْسَنَ وَأَتْقَنَ ، وَكَانَ يَقُولُ : « أَنَا أَكْرَمُ النَّاسِ أَبًا وأُمًّا ، وأَخًا وأُخْتًا : أَبِي رَسُولُ اللهِ - ﷺ - ، وأُمِّي خَدِيجَةُ ، وأَخِي القَاسِمُ ، وأُخْتِي فَاطِمَةُ » .
وَقَدْ رَوَىٰ عَنْهُ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَقَالَ : « حَدَّثَنِي خَالِي » ؛ لأَنَّهُ أَخُو فَاطِمَةَ لأُمِّهَا ، قُتِلَ مَعَ عَلِيٍّ يَوْمَ الجَمَلِ ، وَقِيلَ : مَاتَ بالبصرة فِي الطَّاعُون ، ويُقَالُ : إِنَّ الَّذِي مَاتَ بالطَّاعُون وَلَدُهُ واسْمُهُ هِنْدٌ - أَيْضًا .

الصَّحابيَّيْنِ (١) .

ثُمَّ هَلَكَ أَبُو هَالَةَ عَنْهَا ، فَقَضتْ مُدَّةً طَويلَةً وَهِيَ تَرفُضُ الكَثيرين مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، حَتَّىٰ خَلَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَبَنَىٰ بِهَا (٢) ، سَنَةَ خَمْسٍ وَعشْرِينَ مِنْ مَوْلِده فِي قَوْلِ الجُمْهُورِ (٣) ، وَلَهَا مِنَ العُمُرِ أَربَعُون ، فَكَانَتْ أَسَنَّ (٤) مِنْهُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً (٥) ، وَكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا .

---

(١) « أَزْوَاجُ النَّبي - ﷺ - » للدِّمَشْقِيِّ » (٥٣-٥٤) .

(٢) بَنَىٰ عَلَىٰ أهْله ، وَبهَا ، بنَاءً ، وابْتَنَىٰ بها : دَخَلَ بهَا ، قِيْلَ للدُّخول بالزَّوْجَة بنَاءٌ ؛ لأنَّ الدَّاخلَ بأهله كَانَ يَضْرِبُ عَلَيْهَا قُبَّةً لَيْلَةَ دُخُوله ؛ ليَدْخُلَ بهَا فيهَا ، ثُمَّ قِيل لكُلِّ دَاخِلٍ بأهْلِه بَانٍ .

(٣) « الفَتْح » (٧/١٦٧) .

(٤) أَسَنُّ : أكْبَر سنًّا .

(٥) « السِّيَر » (٢/١١١) .

قصة الزواج المبارك

كَانَتْ خَدِيْجَةُ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ ، تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ فِي مَالِها ، وتُضَارِبُهُمْ (١) إِيَّاهُ بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ مَا بَلَغَهَا : مِنْ صِدْقِ حَدِيْثِه ، وَعِظَمِ أَمَانَتِه ، وَكَرَمِ أَخْلاقِه ـ ، بَعَثَتْ إِلَيْه ، فَعَرَضَتْ عَلَيْه أَنْ يَخْرُجَ فِي مَالٍ لَهَا إِلىٰ الشَّامِ تَاجِرًا ، وتُعْطِيه أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ التُّجَّارِ ، مَعَ غُلامٍ لَهَا يُقالُ لَهُ مَيْسَرَةُ ، فَقَبِلَهُ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ مِنْهَا ، وَخَرَجَ فِي مَالِها ذَلِكَ ، وَخَرَجَ مَعَهُ غُلامُهَا مَيْسَرَةُ ، حَتَّىٰ قَدِمَ الشَّامَ .

ثُمَّ بَاعَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ سِلْعَتَهُ ـ يَعْنِي تِجَارَتَهُ ـ الَّتِي خَرَجَ بِهَا ، واشْتَرىٰ مَا أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ

---

(١) المُضَارَبَة : أَنْ تُعْطِي مَالاً لِغَيْرِكَ يَتَّجِرُ فِيْه ، فَيَكُونَ لَهُ سَهْمٌ مَعْلُومٌ مِنَ الرِّبْحِ ، وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الضَّرْبِ فِي الأَرْضِ والسَّيرِ فِيها للتِّجارةِ .

قَافلاً [١] إلىٰ مَكَّةَ وَمَعَهُ مَيْسَرَةُ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ عَلىٰ خَدِيْجَةَ بِمَالِهَا ، بَاعَتْ مَا جَاءَ بِهِ ، فَأَضْعَفَ أو قَرِيْبًا .

وَلَمَّا رَأَتْ خَدِيْجَةُ فِي مَالِهَا مِنَ الأَمَانَةِ والبَرَكَةِ مَا لَمْ تَرَ قَبْلَ هَذَا ، وَأَخْبَرَهَا غُلامُهَا مَيْسَرَةُ بِمَا رَأَىٰ فِيْهِ ﷺ مِنْ خِلالٍ [٢] عَذْبَةٍ ، وَشَمَائِلَ [٣] كَرِيْمَةٍ ، وَفِكْرٍ رَاجِحٍ ، وَمَنْطِقٍ صَادِقٍ ، وَنَهْجٍ [٤] أَمِينٍ وَجَدَتْ ضَالَّتَهَا المَنْشُوْدَةَ [٥] .

فَعَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ [٦] ، فَوَافَقَ وَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ أَعْمَامَهُ ، فَخَرَجُوا مَعَهُ لِخِطْبَتِهَا لَهُ [٧] .

---

(١) قَافلاً : رَاجِعًا ، وَبَابه دَخَلَ .
(٢) خِلال : خِصَال ، واحدتُهَا خَلَّةٌ ـ بالفَتْحِ ـ .
(٣) الشَّمَايِل : الأَخْلاق ، واحدتُها : شِمالٌ ـ بالكَسر ـ .
(٤) النَّهْج ـ بالفَتْح ـ : الطَّرِيْق الوَاضِحُ .
(٥) المَنْشُوْدَة : المَطْلُوبَة .
(٦) قِيْلَ : عَرَضَتْ عَلَيْه نَفْسَها مِنْ غَيْرِ وَسَاطَة ، وَقِيْلَ : بوَسَاطة صَدِيْقَتُهَا نَفِيْسَةَ بِنْت مُنبه ، والجَمْعُ مُمكن ، فَقَد تَكُون بَعَثَتْ نَفِيْسَةَ أَوَّلاً ؛ لِتَعْلَمَ أَيَرْضَىٰ أَمْ لا ؟ ، فَلَمَّا عَلِمَتْ بِذَلِكَ كَلَّمَتْهُ بِنَفْسِهَا .
(٧) انْظُر : « سِيْرَةُ ابن هِشَام » (١ / ١٤١ ـ ١٤٢) .

زَوَّجَهُ إِيَّاهَا عَمُّهَا عَمْرُو بْنُ أَسَدٍ(١) - إِذْ أَنَّ أَبَاهَا خُوَيْلِدًا مَاتَ قَبْلَ الفِجَارِ(٢) - عَلَىٰ خَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ(٣).

وَلَمَّا تَمَّ العَقْدُ نُحِرَتِ الذَّبَائِحُ، وَوُزِّعَتْ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ، وَفُتِحَتْ دَارُ خَدِيْجَةَ للأَهْلِ والأَقَارِبِ، فَإِذَا بَيْنَهُمْ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّةُ، جَاءَتْ لِتَشْهَدَ عُرْسَ وَلَدِهَا الَّذِي أَرْضَعَتْهُ، وَعَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ قَوْمِهَا، وَمَعَهَا

---

(١) هَذَا هُوَ المُجمَع عَلَيْه، والَّذي رَجَّحَهُ السُّهَيْلِيُّ، انْظُر: «السِّيَر» (٢/١١٠)، و«البِدَايَةُ والنِّهَايَة» (٢/٦٨٥).

(٢) الفِجَار - بالكسر - : يَوْمٌ من أيَّامِ العَرَب، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَفْجِرَةٍ في الأَشْهُرِ الحُرُم، كَانَتْ بَيْنَ قُرَيشٍ وَمَنْ مَعَهُم مِنْ كِنَانَةَ وَبَيْنَ قَيْسِ عَيْلانَ، وَكَانَتْ الدُّبْرَةُ - أي: الهَزِيْمَةُ - عَلَىٰ قَيْسٍ، فَلَمَّا قَاتَلَتْ قُرَيْشٌ، قَالوا: قَدْ فَجَرْنَا، فَسُمِّيَتِ الحَرْبُ فِجَارًا، حَضَرَهَا النَّبِيُّ - ﷺ - وَهُوَ ابْنُ عِشْرِينَ.

(٣) لَمْ يُصْدَقْ - ﷺ - امْرَأَةً مِنْ نِسَائِه أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمائَةِ دِرْهَمٍ، وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ خِلافَهُ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ هُوَ الأَوْلَىٰ بالصِّحَّة؛ فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ في كِتَابِ النِّكَاحِ (١٤٢٦/٧٨) مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّه قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ - ﷺ -: كَمْ كَانَ صَدَاقُ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -؟، قَالَتْ: كَانَ صَدَاقُهُ لأَزْوَاجِه ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً ونَشًّا. قَالَتْ: أَتَدْرِي ما النَّشُ؟، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَتْ: نِصْفُ أُوقِيَّةٍ، فَتِلْكَ خَمْسِمائَةِ دِرْهَمٍ، فَهَذَا صَدَاقُ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - لأَزْوَاجِهِ.

أَرْبَعُونَ رَأْسًا مِنَ الغَنَمِ هَدِيَّةً مِنَ العَرُوسِ الكَرِيمَةِ لِمَنْ أَرضَعَتْ مُحَمَّدًا الزَّوْجَ الحَبِيبَ (١) .

ولدها من رسول الله - ﷺ - :

وَلَدَتْ لَهُ وَلَدَهُ كُلَّهُم - إلا إِبْرَاهِيمَ (٢) - : القَاسِمَ - وَهُوَ أَكْبَرُ وَلَدِه ، وبه كَانَ يُكْنَىٰ - ، ثُمَّ زَيْنَبَ ، ثُمَّ رُقَيَّةَ ، ثُمَّ أُمِّ كُلْثُومٍ ، ثُمَّ فَاطِمَةَ ، ثُمَّ عَبْدَ اللهِ - وَكَانَ يُقَالُ لَهُ : الطَّيِّبُ ، والطَّاهِرُ ؛ لأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبوَّةِ .

وَقَدْ مَاتَ الذَّكَرَانِ صَغِيرَيْنِ ، أَمَّا البَنَاتُ فَكُلُّهُنَّ أَدْرَكْنَ الإِسْلامَ، فأَسْلَمْنَ وهَاجَرْنَ، إِلا أَنَّهُنَّ أَدْرَكَتْهُنَّ الوفَاةُ فِي حَيَاتِه - ﷺ - سِوَىٰ فَاطِمَةَ فَقَدْ تَأَخَّرَتْ بَعْدَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ كَانَتْ أَوَّلَ أَهْلِه بِه لُحُوقًا (٣) .

---

(١) « نِسَاءٌ حَوْلَ الرَّسُول - ﷺ - » (ص٣٧) .

(٢) أُمُّ إِبْرَاهِيمَ هِيَ مَارِيَةُ - بتخفيفِ الياء - ابنةُ شَمْعُونَ القِبْطِيَّةُ ، سُرِّيَّةُ النَّبِيِّ - ﷺ - الَّتِي أَهْدَاهَا إِلَيْه المُقَوْقِسُ عَظِيمُ القِبْطِ مِنْ مِصْرَ .

(٣) « سِيرَةُ ابن هِشَام » (١ / ١٤٢) ، والفَتْحُ (٧ / ١٥٠٧) ، و« البِدَايَة والنِّهَاية » (٥ / ٣٣١-٣٣٢) ، وبَيَّنَ المَصَادر اخْتِلافٌ يَسِيرٌ مَا هُو الرَّاجِحُ مِنْهَا .

فضائلها - رضي الله عنها - :

لخديجة - رضي الله عنها - من الفضائل العظيمة ما لا يُحصَىٰ، منها :

[١] أنَّ جبريل - عليه السلام - أبلغها السلامَ من ربها بواسطة النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - :

فعنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قالَ : « أتَىٰ جبْريلُ - عليه السلام - النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - فقالَ : « يا رسُول الله ، هذه خديْجةُ قدْ أتتْ معَها إناءٌ فيه إدامٌ (١) - أوْ طعامٌ أو شرابٌ - فإذا هيَ أتتْكَ فاقْرأْ (٢) عليْها السَّلام منْ ربِّها ومنِّي » (٣) .

وعنْ أنسٍ - رضي الله عنه - قالَ : جاءَ جبْريلُ إلىٰ النَّبيِّ

---

(١) الإدامُ : ما يُؤْكَلُ بالخُبْزِ، مائعًا كانَ أو جامدًا، والجمْع آدمةٌ ، وأُدُمٌ ، ككتاب وكُتُب ، ويُسكَّنُ للتَّخفيف ، فيُعامَلُ معاملَةَ المُفْرَدِ ، ويُجْمَعُ علىٰ آدامٍ كقُفْلٍ وأقْفال .

(٢) اقْرأ عليْه السَّلامَ ، وأقْرئْهُ إيَّاهُ : أبْلغْهُ ، كأنَّهُ حينَ يُبلِّغُهُ سلامَهُ يَحْمِلُهُ علىٰ أنْ يَقْرأَ السَّلامَ ويَرُدَّهُ .

(٣) أخْرَجَهُ البُخاريُّ (٣٨٢٠) ، ومُسلم (٢٤٣٢ / ٧١) .

- ﷺ - وَعِنْدَ خَدِيْجَة ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ يُقْرِئُ خَدِيْجَةَ السَّلامَ ، فَقَالَتْ : إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ ، وَعَلَىٰ جِبْرِيلَ السَّلامُ ، وعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ (١) .

قَالَ فِي « الزَّاد » : « وَهِي فَضِيْلَةٌ لا تُعْرَفُ لامرأةٍ سِواهَا » (٢) .

[٢] أنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - أُمِرَ أن يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ :

فَفِي حَدِيثِ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - السَّابِقِ قَالَ : أَتَىٰ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ - ، فَقَالَ : يا رَسُولَ اللهِ ، هَذه خَدِيْجَةُ قَدْ أَتَتْ . . . وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ (٣) فِي الجَنَّةِ مِنْ

---

(١) « حَسَنٌ » أخْرَجَهُ النَّسَائيُّ فى « عَمَل اليوم واللَّيْلَة » (٢٧٤) ، وفي « فَضَائل الصَّحَابَة » له (٢٥٤) ، وانظر : « تُحْفَةُ الأشْرَاف » (١/١٠٧) وأَخرَجَهُ الحَاكم فِي « المُستدرك » (٣/١٨٦) ، وحَسَّن إسْنَادَهُ الشيخ / مُصطَفَىٰ العَدَوِيُّ فِي « فَضَائِل الصَّحَابَة » (٥٢٩) .

(٢) « زَادُ المَعَاد » (١/١٠٥) .

(٣) قَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي « الرَّوْض الأُنُف » : « لذكْر البَيْت مَعَنىً لَطِيْفٌ ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ رَبَّةَ بَيْتٍ قَبْلَ المبعث ثُمَّ صَارَتْ رَبَّةَ بَيْتٍ فِي الإِسْلامِ =

قَصَبٍ(١) لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ(٢) »(٣).

مُنْفَرِدَةً به، فَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ وَجْه الأَرض في أَوَّلَ يَوْم بُعثَ النَّبيُّ - ﷺ - بَيْتُ إِسْلَام إِلاَّ بَيْتُهَا، وَهي فَضيلَةٌ مَا شَارَكها فيهَا - أَيْضًا - غَيْرُهَا، وَجزَاءُ الفعْلُ يُذْكَرُ - غَالبًا - بلَفْظه، وإِنْ كَانَ أشرفُ منْهُ؛ فَلهَذَا جَاءَ في الحَديث بلَفْظ البَيْت دُونَ لَفْظ القَصْر » ا .هـ بتصرُّف .

(١) قَالَ النَّوَوِيُّ في « شَرح مُسْلم » (ص١٤٨٠) : « قَالَ جُمهورُ العُلَمَاء: المُرادُ به : قَصَبُ اللُّؤْلُؤ المُجوَّفُ كالقَصْر المُنيف » .
وَقَالَ السُّهَيْلي في « الرَّوض الأُنُف »(٢/٤٢٨) : « النُّكْتَةُ في قَولَهُ : منْ قَصَب » ، ولم يَقُلْ : منْ لُؤْلُو : أنَّ في لَفْظ القَصَب مُناسبَةً لكَوْنهَا أَحرَزَتْ قَصَبَ السَّبْق بمُبادَرَتها إِلَىٰ الإِيمَان دُونَ غَيْرهَا » .
وَقَالَ الحَافظُ في « الفَتْح » (٧/٥١٨) : « وَفي القَصَب مُناسبَةٌ أُخْرَىٰ منْ جهَة اسْتواء أَكْثَر أَنَابيبه ، وكَذَا كَانَ لخَديجَةَ منَ الاسْتواء مَا لَيْسَ لغَيْرهَا؛ إِذْ كَانَتْ حَريصَةً عَلَىٰ رضَاهُ بكُلِّ مُمكنٍ، ولَمْ يَصْدُرْ منْهَا مَا يُغْضبُهُ - قَطُّ - كَمَا وَقَعَ لغَيْرهَا » ا هـ .
وأَصْلُ قَصَبَ السَّبْق: أنَّهم كَانُوا يَنْصبُونَ في حَلَبَة السِّبَاق قَصَبَةً، فَمَنْ سَبَقَ اقْتَلَعَهَا وَأَخَذَهَا؛ ليُعْلَمَ أَنَّهُ السَّابقُ منْ غَيْر نزَاعٍ ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى أُطْلقَ عَلَىٰ المُبَرِّز والمُشَمِّر. انْظُر: اللِّسَان مَادَّة « قَصَب » .

(٢) الصَّخب - بالتَّحْريك - :الصِّياحُ والمُنَازَعَةُ برَفْع الصَّوت ، والنَّصَب : كَالتَّعَب زنَةً ومَعْنى .
قَالَ السُّهَيْلي في « الرَّوْض الأُنُف » (٢/٤٢٩) : مُنَاسَبَةُ نَفْي هَاتَيْن الصِّفَتَيْن - أَعْني المُنَازَعَةَ والتَّعَبَ - : أَنَّهُ - ﷺ - لَمَّا دعا إِلى الإِسْلَام ، أَجَابَتْ خَديجَةُ طَوْعًا ، فلم تُحَوِّجْهُ إِلى رَفْع الصَّوْت ، ولا مُنَازعَة ، ولا تَعَب في ذَلكَ ، بَلْ أَزَالَتْ عَنْهُ كُلَّ نَصَبَ ، وآنَسَتْهُ منْ كُلِّ وَحْشَة ، وهُوِّنَتْ عَلَيْه كُلَّ عَسير ، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ مَنزلُهَا الَّذي بَشَّرَهَا به ربُّهَا بالصِّفَة المُقَابلة لفعْلهَا » .

(٣) تَقَدَّمَ تَخْريجُه .

وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ قَالَ : قُلتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ : أَكَانَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ بَشَّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ ؟ قَالَ : نَعَمَ ، بَشَّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَبَ (١) .

[٣] أَنَّهَا مِنْ أَفْضَلِ نِسَاءِ العَالَمِينَ وكُمَّلِهِنَّ :

فَعنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ قال : « **حَسْبُكَ** (٢) **مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ : مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ** (٣) **، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ** » (٤) .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (١٧٩٢ ، ٣٨١٩) ، ومسلم (٢٤٣٣) .

(٢) حَسْبُكَ أَيْ : كَافِيكَ فِي مَعْرِفَتِكَ فَضْلَهُنَّ .

(٣) لِفَاطِمَةَ ـ فَضَائِلُ جَمَّةٌ ، بَلْ أَكْثَرُ العُلَمَاءِ يُفَضِّلُونَهَا عَلَىٰ أُمِّهَا بِمُقْتَضَىٰ الأَدِلَّةِ ، وَهِيَ أَفْضَلُ بَنَاتِهِ ـ ﷺ ـ ؛ لأَنَّهَا رُزِئَتْ بِالنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ دُونَهُنَّ ، فَإِنَّهُنَّ مُتْنَ فِي حَيَاتِهِ ، فَكُنَّ فِي صَحِيفَتِهِ ، وَمَاتَ هُوَ فِي حَيَاتِهَا ، فَكَانَ فِي صَحِيفَتِهَا .

(٤) « صَحِيحٌ » أَخْرَجَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ (٣ / ١٣٥) ، والتِّرْمِذِيُّ (٣٨٧٨) ، وقَالَ : صَحِيحٌ ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي « صَحِيحِ الجَامِعِ » (٣١٤٣) ، وشَيْخُنَا الوَادِعِيُّ ـ أَيْضًا ـ فِي الجَامِعِ الصَّحِيحِ (٢٠٢) .

وَعَنْ قُرَّةَ بْنِ إِيَاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:

«كَمُلَ (١) مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ (٢)» (٣).

[٤] أَنَّهَا خَيْرُ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ:

فَعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «خَيْرُ

---

(١) المُرَادُ بالكَمَالُ: بُلُوغ النِّهَايةِ فِي جَمِيعِ الفَضَائلِ وَخِصَالِ البِرِّ والتَّقْوَىٰ.

(٢) القَدْرُ المُشْتَرَكُ بَيْنَ الثَّلاث نسْوَة: آسِيَة، وَمَرْيَم، وَخَدِيْجَة، أَنَّ كُلاً منْهُنَّ كَفَلَتْ نَبِيًّا مُرْسَلاً، وأَحْسَنَت الصُّحْبَةَ فِي كَفَالَتِهَا وَصَدَّقَتْهُ، فآسِيَةُ رَبَّتْ مُوسَىٰ، وأَحْسَنَتْ إِلَيْه، وَصَدَّقَتْهُ حِينَ بُعِثَ، وَمَرْيَمُ كَفَلَتْ وَلَدَهَا أَتَمَّ كَفَالَةٍ وأَعْظَمَهَا، وَصَدَّقَتْهُ حِينَ أُرْسِلَ، وَخَدِيْجَةُ رَغَبَتْ فِي تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهَا، وَبَذَلَتْ فِي ذَلِكَ أَمْوَالَهَا، وَصَدَّقَتْهُ حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -. انْظُرْ: البِدَايَة والنِّهَايَة» (٣/ ١٢٩).

(٣) «صَحِيحٌ» أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيه فِي «تَفْسِيرِهِ» وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ ابْنُ كَثِير فِي «البِدَايَة والنِّهَايَة» (٣/ ١٢٩)، وأَقَرَّهُ الأَلْبَانِي عَلَيْهِ كَمَا فِي حَاشِيَة «صَحِيح الجَامِع» (٢/ ٨٤٠).

نِسَائِهَا مَرْيَمُ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيْجَةُ (١) » (٢) .

وَعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ : « لَقَدْ فُضِّلَتْ خَدِيْجَةُ عَلَىٰ نِسَاءِ أُمَّتِي ، كَمَا فُضِّلَتْ مَرْيَمُ عَلَىٰ نِسَاءِ العَالَمِينَ » (٣) .

[٥] أنَّهَا مِنْ أَفْضَلِ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ ومِنْ سَيِّدَاتِهِنَّ:

فَعنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ ، فَقَالَ : «أَتَدْرُونَ مَا هَذِه ؟»، فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : « أَفْضَلُ

---

(١) قَالَ النَّوويُّ في « شَرْحِ مُسْلِمٍ » (ص١٤٧٩) : « الأظْهَرُ أَنَّ مَعْنَاهُ : أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خَيْرُ نِسَاءِ الأَرْضِ فِي عَصْرِهَا ، وأَمَّا التَّفْضِيلُ بَيْنَهُمَا فَمَسْكُوتٌ عَنْهُ » .
وَقَالَ الحَافظ في « الفَتْحِ » (٧/ ٥١٤) : « الَّذي يُظْهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ : « خَيْرُ نِسَائِهَا » خَبَرٌ مُقَدَّمٌ ، والضَّميرُ لِمَرْيَمَ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : مَرْيَمُ خَيْرُ نِسَائِهَا ـ أَيْ : نِسَاءِ زَمَانِهَا ـ ، وكَذَا فِي خَدِيْجَةَ ، وَقَدْ جَزَمَ كَثِيْرٌ مِنَ الشُّرَّاحِ أَنَّ المُرَادَ : نِسَاءُ زَمَانِهَا » .
(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِي (٣٤٣٢) ، ٣٨١٥) ، وَمُسْلِم (٢٤٣٠/ ٦٩) .
(٣) « حَسَنٌ » أَخْرَجَهُ البَزَّارُ ، والطَّبَرَانِيُّ ، وحَسَّنَهُ الحَافِظ في « الفَتْحِ » (٧/ ٥١٤) .

نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنة مزاحم امرأة فرعون » (١) .

وعنه ـ أيضا ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « سيدات نساء أهل الجنة ـ بعد مريم بنت عمران ـ فاطمة ، وخديجة ، وآسية امرأة فرعون » (٢) .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « سيدات نساء أهل الجنة أربع : مريم ، وفاطمة ، وخديجة ، وآسية » (٣) .

---

(١) « صحيح » أخرجه الإمام أحمد (١ / ٢٩٣) ، والحاكم (٢ / ٢٥٩٤) ، والطحاوي في « المشكل » (١ / ٥٠) ، والضياء في « المختارة » (١ / ٦٥) ، والطبراني في « الكبير » ، (١١ / ٣٣٦ و ٢٢ / ٤٠٧ و ٢٣ / ٧) ، وصححه ابن حجر في « الفتح » (٦ / ٤٧١) ، والألباني في « الصحيحة » (١٥٠٨) في صحيح الجامع » (١١٣٥) .

(٢) « صحيح » أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٣١٧٩) ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٢٤) .

(٣) « صحيح » أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣ / ١٨٥) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وصححه ـ أيضا ـ الألباني في الصحيحة (٤٢٤) ، وفي صحيح الجامع » (٣٦٧٨) .

[٦] أنَّها أوَّل من أجاب النبيَّ الإسلام (١)، ولها مقام صدق في أول البعثة:

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ: أَوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ (٢) ثُمَّ حُبِّبَ

---

(١) قَالَ ابْنُ الأَثِيرُ فِي «أُسْدُ الغَابَةُ» (٧/٧٨): «خَدِيجَةُ ـ رضي الله عنها ـ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ إِسْلامًا بِإِجمَاعِ المُسْلِمِين، لم يَتَقَدَّمَهَا رَجُلٌ ولا امرأةٌ».
وأَقَرَّهُ الذَّهَبِيُّ كَمَا فِي «تَجرِيد أَسمَاء الصَّحَابَةُ» (٢/٢٦٢)، ونَقَلَ النَّوَوِيُّ فِي «تَهْذِيبه» (٢/٣٤١) عَنِ الإِمَامُ الثَّعْلَبِيُّ اتِّفَاق العُلَمَاء عَلَىٰ ذَلِكَ، وإِنَّما اخْتِلافُهم فِي أَوَّل مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَهَا.
قُلْتُ: وَلَمَّا كَانَتْ أَوَّلَ الخَلْقِ إِيمَانًا، فَقَدْ سَنَّتْ ذَلِكَ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بَعْدَهَا، فَيَكُونَ لَهَا مِثْلُ أُجُورِهِم، وَلا يُقَدِّرُ قَدْرَ ذَلِكَ إِلا اللهُ؛ فَقَدْ ثَبَتْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِم» (٦٩/١٠١٧) مِنْ حَدِيثِ جَرِيرٍ البَجَلِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِم شَيْءٌ...**».

(٢) فَلَقَ الصُّبْح ـ بالتَّحريك ـ: ضِيَاؤُهُ، وخُصَّ بالتَّشبيه لِظُهُورِهِ الواضح الَّذِي لا شَكَّ فِيهِ.

إِلَيْهِ الخَلاءُ (١) ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ (٢) حِرَاءٍ (٣) ، فَيَتَحَنَّثُ (٤) فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ (٥) قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ (٦) إِلَىٰ أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ (٧) لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا (٨)، حَتَّىٰ جَاءَهُ الحَقُّ (٩) وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ ،

---

(١) الخَلاءَ - بالفتح مَمْدُوداً - : الخَلْوَةُ والعُزْلَة .

(٢) الغَار : الكَهْفُ والنَّقْب في الجَبَل ، والجَمْع أَغْوَارٌ ، وَغَيْرانٌ .

(٣) حراء - بالكَسر مُخَفَّفًا مَمْدُودًا ، يُذَكَّرُ فَيُصْرَفُ ، ويُؤَنَّثُ عَلَىٰ إرادة البُقْعَة الَّتي فيها الجَبَلُ فَيُمْنَعُ ، وتَذْكِيرُهُ أَكْثَرُ - : جَبَلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ نَحْوُ ثَلاثَة أَمْيَال عَنْ يَسَار الذَّاهب منْ مَكَّةَ إِلَىٰ منى .

(٤) فَيَتَحَنَّثُ : فَسَّرَهُ الزُّهْرِيُّ بالتَّعبُّد ، وأَصْلُ يَتَحَنَّثُ : يَتَجَنَّبُ الحَنْثَ - بالكَسرِ وهُوَ الإِثْمُ - فَكَأَنَّهُ بعبَادَته يَخْرُج منَ الحنْث ، ويُلْقيه بهَا عَنْ نَفسه .

(٥) قَالَ الحَافظ في « الفَتْح » (١ / ٣٤) : « إِبْهَامُ العَدَد لاختلافه ، كَذَا قيلَ ، وَهُوَ بالنِّسبَة إِلى المُدَد الَّتي يَتَخَلَّلُهَا مَجِيئُهُ إِلَىٰ أَهْلَه ، وإِلا فَأَصْلُ الخَلْوة قَدْ عُرِفَتْ مُدَّتُهَا ، وَهِي شهرٌ ، وذَلِكَ الشَّهْرُ كَانَ رَمَضَانَ ، رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ » .

(٦) يَنْزِعُ : يَرْجِعُ وَزْنًا ومَعْنَىٰ .

(٧) التَّزَوُّد : اسْتِصْحابُ الزَّاد .

(٨) لِمِثْلِهَا : أي اللَّيَالي .

(٩) جَاءَهُ الحقُّ : أي الأَمْرُ الحَقُّ .

فَقَال: اقْرأْ . قَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي (١) ، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ (٢) ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي (٣) ، فَقَالَ : اقْرَأْ . قَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيةَ ، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَال : اقْرأْ . قَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَال : ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق (١) خَلَقَ الإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) ﴾ .

[العَلَق : ١-٣] .

فَرَجَعَ بِهَا (٤) رَسُولُ اللهِ - ﷺ - يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ - رضي الله عنها - فَقَالَ : « زَمِّلُونِي (٥)

---

(١) غَطَّنِي : ضَمَّنِي وعَصَرَنِي عَصْرًا شَدِيدًا ، حَتَّىٰ وَجَدتُ مِنْهُ المشَقَّةَ ، كَمَا يَجِدُ مَنْ يُغْمَسُ فِي المَاءِ قَهْرًا ، يُقَالُ : غَطَّهُ فِي المَاءِ : إِذَا غَطَّسَهُ .

(٢) الجَهْدَ : الطَّاقة والمشَقَّة ، وقَدْ رُوِيَ بالفتح والنَّصْب ، أَيْ بَلَغَ جِبْرِيلُ مِنِّي غَايَةَ طَاقَتِي ، وَرُوِيَ بالضَّمِّ والرَّفْعِ ، أَيْ : بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ مَبْلَغَهُ وَغَايَتَهُ .

(٣) أَرسَلَنِي : أَطلَقَنِي .

(٤) بِهَا أَيْ : بالآيَاتِ ، أو القِصَّة .

(٥) زَمِّلُونِي : غَطُّونِي بالثِّيَابِ ولُفُّونِي بِهَا .

زَمِّلُونِي » . فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ (١) ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ - وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ - : « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي »(٢) .

فَقَالَتْ : كَلا(٣) واللهِ ، مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ (٤) ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ (٥) وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ (٦) ،

---

(١) الرَّوْع : الفَزَع والخَوْف ، وبَابُهُ قَالَ .

(٢) اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي المُرادِ بالخَشْيَةِ المذكُورة عَلَىٰ اثْنَتَي عَشَرَ قَوْلاً ، وأَوْلَىٰ هَذه الأقوَال بالصَّواب ، وأَسْلَمُهَا مِنَ الارتِيَاب - كَمَا قَالَ الحَافظُ - ثَلَاثَة : أَحَدُهُما - المَوْتُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ .
والثَّانِي : المَرَضُ .
والثَّالِث : دَوَامُ المَرَض . انْظُر : « الفَتْحُ » (١ / ٣٦) .

(٣) كَلا : هِي هُنَا كَلِمَةُ نَفْي وإبعاد .

(٤) صِلَة الرَّحِم : الإِحْسَانُ إِلَىٰ الأَقَارِب عَلَىٰ حَسَبِ حَالِ الوَاصِلِ والمَوصُول ، فَتَارَةً تَكُونُ بالمَالِ ، وَتَارَةً بالخِدْمَةِ ، وتَارَةً بالزِّيَارَةِ والسَّلامِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

(٥) الكَلّ - بالفَتْحِ - الثِّقْل ، وَيُدخلُ فِي حَمْلِ الكَلِّ الإِنْفَاقُ عَلَىٰ الضَّعِيف ، واليَتِيم ، وغَيْرِ ذَلِكَ .

(٦) تَكْسِبُ المَعْدُوم : أَيْ : تُعْطِي النَّاسَ الشَّيْءَ المَعْدُومَ الَّذي لا يَجِدُونَهُ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْه ، فَحُذِفَ المَفْعُولُ الأَوَّلُ ، يُقَالُ : كَسَبْتُ زَيْدًا مَالاً وأكسبتُهُ أَيْ : أعطيتُهُ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : تُعْطِي الفَقِيرَ مَالاً يَعِيشُ به ، فَحُذِفَ المَفْعُولُ الثَّانِي ، سُمِّيَ الفَقِيرُ مَعْدُومًا ؛ لأَنَّ حَيَاتَهُ نَاقِصَةٌ ، فَهُو كَالمَعْدُومِ المَيِّتِ الَّذي لا تَصَرُّفَ لَهُ فِي المَعِيشَةِ .

وتَقْرِي الضَّيْفَ[١]، وتُعِينُ عَلَىٰ نَوائِبِ الحَقِّ[٢].[٣]

فَانْطَلَقَتْ به خَدِيجَةُ، حَتَّىٰ أَتَتْ به وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَ ابْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّىٰ، ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ - وَكَانَ امْ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلَ بالعِبْرَانِيَّةِ[٤] مَا شَاءَ اللَّهُ أَ

---

(١) تَقْرِي الضَّيْفَ: تُكْرِمُهُ فِي تَقَدِيمِ قِرَاهُ، وإِحْسَانِ مَأْواهُ، يُقَالُ قَرَىٰ الضَّيْفَ يَقْرِيه قِرًى - بالكَسْرِ والقَصْرِ - وقَرَاءً - بالفَتْحِ والمدِّ - فَ قَارٍ، ويُقَالُ لطَعَامِ الضِّيَافَةِ: قِرًى.

(٢) تُعِينُ عَلَىٰ نَوائِبِ الحَقِّ أَيْ: إِذَا وَقَعْتَ نَائِبَةٌ لأَحَدٍ فِي خَيْرٍ، أَعَنْ فِي كَشْفِهَا عَنْهُ، وَقُمْتَ مَعَهُ حَتَّىٰ يَجِدَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ. وإِنَّ قَالَتْ: نَوَائِبَ الحَقِّ؛ لأَنَّه النَّائِبَةَ - وَهِيَ الحَادِثَةَ - قَدْ تَكُونُ فِي الخَ ، وقَدْ تَكُونُ فِي الشَّرِّ.

(٣) قَالَ النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ مُسْلِم» (٢/ ٢٦٥): «قَالَ: العُلَمَاءُ - رضي الله عنهم مَعْنَىٰ كَلامِ خَدِيجَةَ - رضي الله عنها - أَنَّكَ لا يُصِيبُكَ مَكْرُوهٌ؛ لِمَا جَعَلَ فِيكَ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ، وَذَكَرَتْ ضُرُوبًا ذَلِكَ. وَفِي هَذَا دَلالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ، وَخِصَالَ الخَ سَبَبُ السَّلامَةِ مِنْ مَصَارِعِ السُّوءِ، وَفِيهِ مَدْحُ الإِنْسَانِ فِي وَجْهِهِ بَعْضِ الأَحْوالِ لِمَصْلَحَةٍ نَظَرًا، وَفِيهِ تَأْنِيسُ مَنْ حَصَلَتْ لَهُ مَخَافَةٌ أَمْرٍ وتَبْشِيرُهُ، وَذِكْرُ أَسْبَابِ السَّلامَةِ لَهُ، وَفِيهِ أَعْظَمُ دَلِيلٍ وأَبْلَغُ حُ عَلَىٰ كَمَالِ خَدِيجَةَ - رضي الله عنها -، وَجَزَالَةِ رَأْيِهَا، وقُوَّةِ نَفْسِهَا، وثَبَا قَلْبِهَا، وعِظَمِ رِفْقِهَا، واللَّهُ أَعْلَمُ» ا. هـ.

(٤) العِبْرَانِيَّة - بالكَسْرِ - لُغَةُ اليَهُودِ.

يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ـ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَابْنَ عَمٍّ ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ (١) ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا بْنَ أَخِي ، مَاذَا تَرَىٰ .

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ (٢) الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَالَيْتَنِي فِيهَا (٣)

---

(١) قَالَ الحَافظُ فِي «الفَتْح» (١ / ٣٧) : « قَالَتْ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ : «اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ» ؛ لأَنَّ وَالِدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِب ، وَوَرَقَةُ فِي عَدَدِ النَّسَبِ إِلَىٰ قُصَيِّ بْنِ كِلاب الَّذِي يَجْتَمِعَانِ فِيهِ سَوَاءٌ ،فَكَانَ مِنْ هَذِهِ الحَيْثِيَّةِ فِي دَرَجَةِ إِخْوَانِهِ ، أَوْ قَالَتْهُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّوقِيرِ لِسِنِّهِ . وَفِيهِ إِرْشَادٌ إِلَىٰ أَنَّ صَاحِبَ الحَاجَةِ يُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَنْ يُعَرِّفُ بِقَدْرِهِ مِمَّنْ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَىٰ المَسْئُولِ، وَذَلِكَ مُسْتَفَادٌ مِنْ قَولِ خَدِيجَةَ لِوَرَقَةَ : «اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ» ، أَرَادَتْ بِذَلِكَ أَنْ يَتَأَهَّبَ لِسَمَاعِ كَلامِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ ،وَذَلِكَ أَبْلَغُ فِي التَّعْلِيمِ» اهـ .
قلتُ : وَلَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ القَارِئِ اللَّبِيبِ مَا فِي النِّدَاءِ بِمَا يُذَكِّرُ النَّاسَ بِالرَّحِمِ مِنْهُ زَرْعِ المَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ فِي القُلُوبِ، وَمَا فِيهِ مِنَ التَّوقِيرِ وَالإِجْلَالِ، نَاهِيكَ عَمَّا فِيهِ مِنَ الفَوَائِدِ وَالمَسَارِّ مَا لَا يُدْرِكُهُ إِلا الوَاحِدُ بَعْدَ الوَاحِد .

(٢) النَّامُوس : صَاحِبُ سِرِّ الرَّجُلِ فِي خَيْرِهِ وَشَرِّهِ،وَأَرَادَ بِهِ وَرَقَةُ جِبْرِيلَ عليه السلام ـ؛ لأَنَّ اللهَ ـ تَعَالَىٰ ـ خَصَّهُ بِالوَحْيِ وَالغَيْبِ اللَّذَيْنِ لا يَطَّلِعُ عَلَيْهِمَا غَيْرُهُ .

(٣) فِيهَا أَيْ : فِي نُبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ .

جَذَعٌ (١)، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟!».

قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ - قَطُّ - بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا(٢)، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ (٣) وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ (٤)،

(١) جَذَع أيْ: شابٌّ قَوِيٌّ؛ حَتَّىٰ أُبَالِغَ فِي نُصْرَتِكَ، والأَصْلُ فِي الجَذَعِ - بالتَّحْرِيك - :للصَّغِيرِ السِّنِّ مِنَ البَهَائِمِ، وَهُوَ هُنَا اسْتِعَارَةٌ، وَجَمْعُ الجَذَعِ جِذَاعٌ، وَجُذْعَانٌ - بالضَّمِّ والكَسْرِ - .

(٢) مُؤَزَّرًا أيْ: قَوِيًّا بَالِغًا، مِنَ الأَزْرِ، وَهُوَ القُوَّةُ والشِّدَّةُ.

(٣) لَمْ يَنْشَبْ - مِنْ بَابِ فَرِحَ وَنُشُوبًا أيْضًا - أَنْ تُوُفِّيَ أَيْ: لَمْ يَلْبَثْ، وأَصْلُ النُّشُوبِ التَّعَلُّقُ، أَيْ: لم يَتَعَلَّقْ بِشَيْءٍ مِنَ الأُمُورِ حَتَّىٰ مَاتَ، يعْنِي تُوُفِّيَ بَعْدَ هَذِهِ القِصَّةِ بِقَلِيلٍ.

(٤) إِنَّ مِثْلَ هَذَا الَّذِي صَدَرَ عَنْ وَرَقَةَ - رَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ - تَصْدِيقٌ بِمَا وَجَدَ، وَإِيمَانٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الوَحْيِ، وَنِيَّةٌ صَالِحَةٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ؛ لِذَا قَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مَاتَ عَلَىٰ خَيْرٍ، فَقَدْ أَخْرَجَ البَزَّارُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٣/ ٢٨١)، والحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ» (٢/ ٦٠٩) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (٤٠٥)، وَ«صَحِيحِ الجَامِعِ» (٧٣٢٠) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «لا تَسُبُّوا وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ». وأَخْرَجَ أَبُو يَعْلَىٰ بِسَنَدٍ حَسَنٍ، حَسَّنَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «البِدَايَةِ» (٣/ ١٠) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - سُئِلَ عَنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُهُ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَابَ بَيَاضٍ، أَبْصَرْتُهُ فِي بُطْنَانِ الجَنَّةِ، وَعَلَيْهِ السُّنْدُسُ».

وَفَتَرَ الوَحْيُ (١). (٢).

وَهَكَذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ - ﷺ -، وَعَاوَدَتْهُ سَكِينَتُهُ بِتَثْبِيتِ خَدِيجَةَ لَهُ، وَشَمْلِهَا إِيَّاهُ بِعَطْفِهَا وَحَنَانِهَا، وَإِيمَانِهَا بِمَا جَاءَهُ مِنَ اللهِ، فَاجْزِهَا - اللَّهُمَّ - عَنِ الإِسْلامِ والمُسْلِمِينَ خَيْرَ الجَزَاءِ.

[٧] مُبَادَرَتُهَا الدَّائِمَةُ إِلَىٰ مَرْضَاتِهِ - ﷺ - وَبَذْلُهَا نَفْسَهَا وَمَالَهَا لَهُ:

لَقَدْ كَانَتْ خَدِيجَةُ - رضي الله عنها - مِنْ نِعَمِ اللهِ الجَلِيلَةِ عَلَىٰ رَسُولِهِ - ﷺ -، فَقَدْ عَاشَتْ مَعَهُ رُبْعَ قَرْنٍ (خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً قَبْلَ البِعْثَةِ، وَعَشْرَ سَنَوَاتٍ بَعْدَهَا)، لَمْ تُخَالِفْهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ، بَلْ كَانَتْ - دَائِمًا - تُبَادِرُ إِلَىٰ مَرْضَاتِهِ، وَتُسَارِعُ بِمَا يُعِينُهُ عَلَىٰ تَحْقِيقِ رَغَبَاتِهِ، رَأَتْ إِعْجَابَهُ بِغُلامِهَا زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ،

---

(١) فَتَرَ الوَحْيُ: تَأَخَّرَ نُزُولُهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٣)، ومُسْلِم (١٦٠/٢٥٢).

فَوَهَبَتْهُ لَهُ ، آنَسَتْ منْهُ الرَّغْبَةَ فِي ضَمِّ ابْنِ عَمِّه عَلَيٍّ إِلىٰ بَيْتِه ، فَرَحَّبَتْ بذَلكَ ، رَأَتْ تَعَلُّقَ قَلْبَهُ بالخَلْوَة فِي غَارِ حراءٍ اللَّيَالَيَ الطَّوِيْلَةَ قُبَيْلَ البِعْثَة ، فَكَانَتْ تُهَيِّئُ لَهُ الزَّادَ ، وَمَا كَانَتْ لتَضيْقَ ذَرْعًا بَهَذه الخَلَوَات الَّتي تُبْعدُهُ عَنْهَا أَحَيْانًا ، وَمَا كَانَتْ لتُعَكِّرَ صَفْوَ تَأَمُّلاته بفُضُول الأَسْئلَة ، وَالقيْلَ وَالقَال ، بَلْ حَاوَلَتْ ـ مَا وَسَعَهَا الجَهْدُ ـ أَنْ تَحُوطَهُ بالرِّعَاية والهُدُوءِ مَا أَقَام فِي البَيْت ، فَإِذَا انْطَلَقَ إِلىٰ الغَارِ ظَلَّتْ عَيْنَاهَا عَلَيْه منْ بَعيْدٍ ، بَلْ وَتُرْسلُ وَرَاءَهُ مَنْ يَحْرُسُهُ وَيَرْعَاهُ ، دُونَ أَنْ يُفْسدَ عَلَيْه خَلْوَتَهُ .

ثَبَّتَتْهُ ـ ﷺ ـ أَحْوَجَ مَا يَكُونَ بحَاجَةٍ إِلىَ تَثْبيت ، وازَرَتْهُ عَلَىٰ أَمْرِه فِي أَحْرَجِ أَوْقَاته ، وَاسَتْهُ بمَالهَا أَحْوَجَ مَا يَكُونُ بحَاجَةٍ إِلَيْه .

وَفِي ذَلكَ الحصَارِ المُنْهكِ الَّذي حُوصرَ فيْه المُسْلمُون مَعَ بَني هَاشِم فِي شِعْب أَبِي طَالبٍ ، لَمْ

تَتَرَدَّدْ خَدِيجَةُ فِي الوُقُوفِ مَعَ الرَّسُولِ - ﷺ - وصَحْبِه مُتَخَلِّيَةً عَن دَارِهَا ، لتَقْضِيَ هُنَالكَ فِى الشِّعْبِ ثَلاثَ سِنِينَ صَابِرَةً مُحْتَسِبَةً ، حَتَّىٰ أَثَّرَ الحِصَارُ فِي صِحَّتِهَا ، وَصِحَّةِ ابْنَتَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ : أُمِّ كُلْثُومٍ ، وَفَاطِمَةَ ، وَقَدْ بَقِيَتْ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ طَوَالَ حَيَاتِهَا تُعَانِي مِنْ ضَعفِ البُنْيَةِ .

كَانَتْ خَدِيجَةُ أَيَّامَ الحِصَارِ تُعْطِي المَالَ لابْنِ أَخِيهَا حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ (وَكَانَ شَدِيدَ المَحَبَّةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ - مَعَ أَنَّه مَا أَسْلَمَ إِلا يَوْمَ الفَتْحِ) ، فَكَانَ حَكِيمٌ يُقْبِلُ بِالعِيرِ (١) يَقْدَمُ مِنَ الشَّامِ ، فَيَشْتَرِيهَا بِكَمَالِهَا ، ثُمَّ يَذْهَبُ بِهَا يَضْرِبُ أَدْبَارَهَا ، حَتَّىٰ يَلِجَ (٢) الشِّعْبَ يَحْمِلُ الطَّعَامَ وَالكُسْوَةَ تَكْرِمَةً لِرَسُولِ اللهِ - ﷺ - ،

---

(١) العير - بالكَسْرِ - الدَّوَابُّ بأَحْمَالِهَا ، إِبِلاً كَانَتْ أو حَمِيرًا ، أَوْ بِغَالاً ، ولاَ وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا ، والجَمْع عِيرَاتٌ - بالكَسْرِ وَتَحْرِيكِ اليَاءِ ، ويُسكَّنُ .

(٢) يَلِجَ : يَدْخُل ، وبَابُهُ جَلَسَ .

وَلِعَمَّتِه خَدِيْجَةَ ـ رضي الله عنها ـ (١)

[٨]أنَّها كانَتْ أحْظَى (٢) نساءِ رسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَه:

لَقَدْ نَالَتْ خَدِيْجَةُ مِنَ المَنْزِلَة وَالمَكَانة عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ مَا لَمْ تَنَلْهُ غَيْرُهَا مِنْ سَائِرِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِين ، يَتَّضِحُ ذَلِكَ فِيمَا يأتِي :

(أ) أنَّ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ لَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَتْ:

لَقَدْ بَقِيَ ـ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ مَعَ خَدِيْجَةَ إِلَىٰ أَنْ بَلَغَ خَمْسِينَ عَامًا مِنْ عُمُرِه الشَّرِيف ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا مُدَّةَ حَيَاتِهَا ، وَلَمْ يَتَسَرَّ (٣) إِكْرَامًا وَإِعْزَازًا لَهَا ؛

---

(١) انْظُر : « البدَايَةُ والنِّهَايَةُ » (٨ / ٤٤٠) .

(٢) أَحْظَىٰ : أَكْثَر حُظْوَةً ، والحُظْوَةُ ـ بالضَّمِّ والكَسْر ـ : المَكَانَةُ والمَنْزِلَة الرَّفِيْعَة، وَالجَمْع حظًا ، وَحِظَاء، يُقَالُ :حَظِيَت المَرأَةُ عِنْدَ زَوْجِهَا ـ مِنْ بَاب رَضِيَ ـ حُظْوَةً : وَحِظَةً : إِذَا صَارَتْ ذَاتَ مَنْزِلَةٍ وَمَكَانَةٍ ، وَدَنَتْ مِنْ قَلْبِه وَأَحَبَّهَا فَهِيَ حَظِيَّتُهُ .

(٣) لَمْ يَتَسَرَّ أَيْ: لَمْ يَتَّخِذْ سُرِّيَّةً، وَهِيَ الأَمَةُ المُتَّخِذَةُ للملْك وَالجِمَاع ، وَهِيَ فُعْلِيَّة مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ السِّرِّ ـ بِالكَسْرِ ـ بِمَعْنَىٰ : الإِخْفَاءِ ؛ لأَنَّ الإِنسانَ كَثِيرًا ما يُسِرُّهَا وَيَسْتُرُهَا عَنْ حُرَّتِه ، وإِنَّمَا ضُمَّتْ سِنُّهُ ؛ لأَنَّ الأَبْنِيَةَ قَدْ تُغَيَّرُ فِي النِّسْبَة خَاصَّةً ، كَمَا قَالُوا فِي النِّسْبَة إِلَىٰ الدَّهْرِ : دُهْرِيٌّ ، وإِلَىٰ الأَرضِ السَّهْلَة : سُهْلِيٌّ ـ بِضَمِّ أَوَّلِهِمَا ـ .

وَلأَنَّهُ اسْتَرَاحَ إِلَيْهَا ، وَاطْمَأَنَّ بِصُحْبَتِهَا ، وَلَوْ أَنَّهَا طَعَنَتْ فِي السِّنِّ ، وَبَقِيَ هُوَ فِي عُنْفُوانِ شَبَابِهِ (١) ، وَتَمَامِ رُجُولَتِهِ .

فَعَن عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ : «لَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ عَلَىٰ خَدِيجَةَ حَتَّىٰ مَاتَتْ (٢) » (٣) .

(ب) كَثْرَةُ ذِكْرِهِ ـ ﷺ ـ لَهَا وَثَنَائِهِ عَلَيْهَا بَعْدَ مَوْتِهَا :

فَعَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ : مَا غِرْتُ عَلَىٰ امْرأةٍ مَا غِرْتُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ؛ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ

---

(١) عُنْفُوانُ الشَّبَاب ـ بضَمِّ العَيْن والفاءِ ، بَيْنَهُما نُونٌ سَاكِنَةٌ ـ : أوَّلُهُ .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِم (٢٤٣٦/٧٧) .

(٣) قَالَ الحَافظ فى« الفَتْح» (٧/١٣٧) : «وَفِيه دَلِيلٌ عَلَىٰ عِظَمِ قَدْرِهَا عِنْدَهُ ، وَعَلَىٰ مَزِيد فَضْلِهَا ؛ لأَنَّهَا أَغْنَتْهُ عَنْ غَيْرِهَا ، واخْتَصَّتْ بِه بِقَدْرِ مَا اشْتَرَكَ فِيهِ غَيْرُهَا مَرَّتين ، لأَنَّه ـ ﷺ ـ عَاشَ بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَهَا ثَمَانِيَةً وَثَلاثِينَ عَامًا ،انْفَرَدَتْ خَدِيجَةُ مِنْهَا بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا ، وَهِيَ نَحْوُ الثُّلُثَيْنِ مِنَ المَجْمُوعِ ، وَقَعَ طُولُ المُدَّةِ فَصَانَ قَلْبَهَا فِيهَا مِنَ الغَيْرَةِ ، وَمِنْ نَكَدِ الضَّرَائِرِ الَّذِي رُبَّمَا حَصَلَ لَهُ هُوَ مِنْهُ مَا يُشَوِّشُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَهِيَ فَضِيلَةٌ لَمْ يُشَارِكْهَا فِيهَا غَيْرُهَا » .

إِيَّاهَا(١)، قَالَتْ: وَتَزَوَّجَنِي بَعْدَهَا بِثَلاثِ سِنِينَ(٢)، وَأَمَرَهُ رَبُّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَوْ جِبْرِيلُ عليه السلام ـ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ»(٣).

وَعَنْهَا ـ أَيْضًا ـ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَىٰ عَلَيْهَا بِأَحْسَنِ الثَّنَاءِ، قَالَتْ: فَغِرْتُ يَوْمًا؛ فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ

(١) قَالَ الحَافِظُ فِي «الفَتْح» (٧/ ٥١٥): «فِيهِ ثُبُوتُ الغَيْرَةِ، وَأَنَّهَا غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ وُقُوعُهَا مِنْ فَاضِلاتِ النِّسَاءِ فُضْلاً عَمَّنْ دُونَهُنَّ، وَأَنَّ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ كَانَتْ تَغَارُ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ، لَكِنْ كَانَتْ تَغَارُ مِنْ خَدِيجَةَ أَكْثَرَ، وَقَدْ بَيَّنَتْ سَبَبَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لِكَثْرَةِ ذِكْرِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ إِيَّاهَا... وَأَصْلُ غَيْرَةِ المَرْأَةِ مِنْ تَخَيُّلِ مَحَبَّةِ غَيْرِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ تَدُلُّ عَلَىٰ كَثْرَةِ المَحَبَّةِ».

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «السِّيَر» (٢/ ١٦٥): «وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ شَيْءٍ أَنْ تَغَارَ ـ رضي الله عنها ـ وَمِنِ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ، تُوُفِّيَتْ قَبْلَ تَزَوُّجِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ بِعَائِشَةَ بِمُدَيْدَةٍ، ثُمَّ يَحْمِيهَا اللهُ مِنَ الغَيْرَةِ مِنْ عِدَّةِ نِسْوَةٍ يُشَارِكْنَهَا فِي النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فَهَذَا مِنْ أَلْطَافِ اللهِ بِهَا، وَبِالنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ؛ لِئَلا يَتَكَدَّرَ عَيْشُهُمَا، وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا خَفَّفَ أَمْرَ الغَيْرَةِ عَلَيْهَا حُبُّ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ لَهَا، وَمَيْلُهُ إِلَيْهَا، فَرَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا».

(٢) أَرَادَتْ بِذَلِكَ زَمَنَ دُخُولِهِ ـ ﷺ ـ بِهَا، وَأَمَّا العَقْدُ عَلَيْهَا فَقَدْ كَانَ بَعْدَ وَفَاةِ خَدِيجَةَ بِزَمَنٍ يَسِيرٍ، وَأَشَارَتْ بِذَلِكَ إِلَىٰ أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي زَمَانِهَا لَكَانَتْ غَيْرَتُهَا مِنْهَا أَشَدَّ.

(٣) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٣٨١٧)، وَمُسْلِم (٢٤٣٥/ ٧٤).

الشُّدْقَيْنِ (١)، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا (٢) ! .

« وَفِي رِوَايَةٍ : قَالَتْ : فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - تَغَيُّرًا لَمْ أَرَهُ تَغَيَّرَ عِنْدَ شَيْءٍ - قَطُّ - إِلَّا عِنْدَ نُزُولِ الوَحْيِ ، أَوْ عِنْدَ المَخِيلَةِ (٣) ، حَتَّىٰ يَعْلَمَ رَحْمَةً أَوْ

(١) الشُّدْقَان : - بالكَسْرِ ويُفْتَحُ -: جانبا الفَمِ من بَاطِنِ الخَدَّيْنِ، وَجَمْعُ الشِّدْقِ أشْداقٌ ، وشُدُوقٌ ، وَقَوْلُهَا : حَمْرَاءُ الشِّدْقَيْنِ : كِنَايَةٌ عَنْ سُقُوطِ أَسْنَانِهَا مِنَ الكِبَرِ ، حَتَّىٰ لا يَبْقَىٰ دَاخِلَ فَمِهَا إِلَّا اللَّحْمُ الأَحْمَرُ مِنَ اللِّثَةِ وَغَيْرِهَا .

(٢) أَرَادَتْ عَائِشَةُ أَنَّهَا - لِشَبَابِهَا وحُسْنِهَا - خَيْرٌ مِنْ خَدِيجَةَ عِشْرَةً، وَلَيْسَ مُرَادُهَا أَنَّهَا تُزَكِّي نَفْسَهَا ، وتُفَضِّلُهَا عَلَىٰ خَدِيجَةَ ؛ فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَرْجِعُهُ إِلَىٰ اللهِ - عزَّ وَجَلَّ - كَمَا قَالَ: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾ [النجم: ٣٢]، وقَالَ - تَعَالَىٰ - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٩] . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ بِالخَيْرِيَّةِ هُنَا حُسْنُ الصُّورَةِ، وصِغَرُ السِّنِّ رِوَايَةُ أَبِي نَجِيحٍ - والحَدِيثُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ - عَنْ عَائِشَةَ عِنْدَ أَحْمَدَ والطَّبَرَانِي فِي هَذِهِ القِصَّةِ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ : « أَبْدَلَكَ اللهُ بِكَبِيرَةِ السِّنِّ حَدِيثَةَ السِّنِّ » .

(٣) المَخِيلَةُ - بِفَتْحِ المِيمِ وَكَسْرِ الخَاءِ - : السَّحَابَةُ الَّتِي تَحْسَبُهَا مَاطِرَةً ، فَإِذَا وَقَعَ المَطَرُ ذَهَبَ اسْمُ التَّخَيُّلِ ، والجَمْعُ المَخَايِلُ . وَفِي رِوَايَةٍ : « أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - إِذَا رَأَىٰ مَخِيلَةً أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ وَتَغَيَّرَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : « وَمَا يُدْرِينَا ؟ لَعَلَّهُ كَمَا ذَكَرَ اللهُ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف: ٢٤] .

عَذَابًا » (١) .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ قَالَتْ : فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا ، وسُقِطَ فِي خَلَدِي (٢) ، وَقُلتُ : اللَّهُمَّ إِنْ ذَهَبَ غَيْظُ رَسُولِكَ لَمْ أَعُدْ أَذْكُرُهَا بِسُوءٍ مَا بَقِيْتُ .

قَالَ : « مَا أَبْدَلَنِي اللهُ خَيْرًا مِنْهَا ؛ وَقَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالَيْهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ » (٣) .

وَفِي رِوَايَةَ : قَالَتْ - رضي الله عنها -: فَغَدَا وَرَاحَ (٤) عَلَىٰ

---

(١) « صَحِيحٌ » أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٥٢٢٦) .

(٢) الخَلَد - بالتَّحريك - النَّفْس ، والجَمْعُ أَخْلادٌ . ومَعْنىٰ سُقِطَ فِي خَلَدِي - عَلَىٰ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ - أَيْ : نَدِمْتُ عَلَىٰ مَا قُلْتُ ، وَتَحَسَّرْتُ عَلَىٰ مَا فَرَطَ مِنِّي ، كَأَنَّ المُرادَ سَقَطَ النَّدَمُ فِي نَفْسِي .

(٣) قَوْلُهُ هَذَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ سُرِّيَتِهِ مَارِيَةَ ، وَقَبْلَ مَقْدَمِها بالكُلِّيَّة .

(٤) فَغَدَا وَرَاحَ أَيْ : ذَهَبَ وَرَجَعَ .

بَابِهَا شَهْرًا (١) .

وَلَمْ تَجْسُرْ (٢) عَائِشَةُ الزَّوْجَةُ ذَاتُ الحُظْوَةِ أَنْ تُجْرِيَ ذِكْرَ خَدِيْجَةَ عَلَىٰ لِسَانِهَا بَعْدَ تِلْكَ القَضِيَّةِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ يُصَانِعُهُ (٣) وَهُوَ يَفِي لِخَدِيْجَةَ هَذَا الوَفَاءِ الجَمِيْلِ ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مَضْرَبَ الأَمْثَالِ لِسَائِرِ الأَزْوَاجِ رِجَالاً ونِسَاءً؟! .

أَتَرَاهُ كَانَ يُصَانِعُ الَّتِي مَاتَتْ لِيُغْضِبَ الَّتِي يَعِيشُ مَعَهَا وَيُحِبُّهَا ؟! .

مَا القَوْلُ فِي هَذَا الوَفَاءِ المُعْجِزِ، والدُّنْيَا حَافِلَةٌ (٤) حَوْلَنَا بِأَمْثِلَةِ العُقُوقِ ، وَنِسْيَانِ الفَضْلِ ، وَخِيَانَةِ

---

(١) « حَسَنٌ » أَخْرَجَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ (٦/١١٧-١١٨)، والطَّبَرَانِيُّ فِي « الكَبِيرِ » (٢٣/١٣) وَحَسَّنَ إِسْنَادَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي « التَّارِيخِ » (٣/١٢٦) والهَيْثَمِيِّ فِي « مُجْمَعِ الزَّوَائِدِ » (٩/٢٢٤) .

(٢) جَسَرَ عَلَىٰ كَذَا يَجْسُرُ ـ بِالضَّمِّ ـ جَسَارَةً ـ بِالفَتْحِ ـ : أَقْدَمَ وَتَجَرَّأَ .

(٣) صَانَعَهُ : دَارَاهُ وَرَافَقَهُ وَدَاهَنَهُ .

(٤) مِنْ رِسَالَةٍ : « فِي حَيَاتِهِ الخَاصَّةِ » للدُّكْتُورِ / نَظْمِي لُوقَا (ص٥٦) .

العَهْدِ ؟! .

وَلَمْ تَشْغَلْهُ - ﷺ - عَنْ ذِكْرِهَا أَعْبَاءُ الدَّعْوةِ ، وَلا هَوْلُ الحُرُوبِ ، فَعِنْدَما أَسَرَ المُسلِمُونَ أبَا العَاصِ بْنَ الرَّبيع فِي مَعَرَكَةِ بَدْرٍ ، بَعَثَتْ زَيْنَبُ إِلىٰ أَبِيهَا - ﷺ - مَعَ عَمْرُوٍ أَخِي أَبِي العَاصِ بِمَالٍ وَقِلادةٍ كَانَتْ لِخَدِيْجَةَ فِي فِدَاءِ زَوْجِهَا ، وَلَمْ يَكَدْ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - يَرَىٰ تِلْكَ القِلادَةَ ، حَتَّىٰ خَفَقَ فُؤَادُهُ الكَرِيمُ لِذِكْرَىٰ زَوْجَتِهِ الوَفِيَّةِ خَدِيْجَةَ - رضي الله عنها - .

فَعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ : لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أَبِي العَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ بِمَالٍ ، وبَعَثَتْ فِيْهِ بِقِلاَدَةٍ لَهَا كَانَتْ لِخَدِيْجَةَ ، أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَىٰ أَبِي العَاصِ حِين بَنَىٰ بِهَا .

قَالَتْ : فَلَمَّا رآهَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدةً ، وقَالَ : « إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا ،

وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا فَافْعَلوا » ، قَالوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ . فَأطْلَقُوهُ وَرَدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لهَا (١) .

(جـ) إكْرَامُهُ ـ ﷺ ـ أَهْلَهَا، وَبِرُّهُ صَدائِقَهَا بَعْدَ مَوْتِهَا:

عَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلد (٢) أُخْتُ خَدِيْجَةَ عَلَىٰ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلدٍ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيْجَةَ (٣)، فَارتَاحَ لِذَلِكَ (٤) ،

---

(١) « حَسَنٌ » أخرَجَهُ الإمَام أَحمدُ (٦/ ٢٧٦) ، وحَسَّن إسْنَادَه شَيْخَنَا الوَادعيُّ ـ رَحِمَهُ الله ـ في الجَامع الصَّحِيْح مِمَّا لَيْسَ فِي الصَّحِيْحَيْن (٤/ ١٣١) ، رقم (٢٥٦٩) .

(٢) قَالَ الحَافظُ في « الفَتْح » (٧/ ٥٢٠) عَنْ هَالَةَ هَذه : « هِيَ أُخْتُ خَدِيْجَةَ ، وَكَانَتْ زَوْجَ الرَّبِيعِ بْنِ عَبْدِ العُزَّىٰ بْن عَبْدِ شَمْسٍ والد أَبِي العَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ زَوْجِ زَيْنَبَ بِنْتِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ ، وَقَدْ ذَكَرُوهَا فِي الصَّحَابَة ، وَهُو ظَاهِرُ هَذَا الحَدِيْث » .

(٣) فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيْجَةَ أَيْ : صِفَتَهُ؛ لِشبْهِ صَوْتِهَا بِصَوْتِ أُخْتِهَا ، فَتَذكرُ خَدِيْجَةَ بِذَلِكَ .

(٤) قَالَ النَّوَوِيُّ فِي « شَرحِ مُسْلِم » (ص١٤٨١) : « قَولُهَا : فَارْتَاحَ لِذَلِكَ » أَيْ هَشَّ لِمجيئِهَا ، وسُرَّ بِذَلِكَ؛ لِتَذكُّرِه بِهَا خَدِيْجَةَ وأَيَّامَهَا . وَفِي هَذَا كُلِّه دَلِيْلٌ لِحُسْنِ العَهْدِ ، وَحِفْظِ الوُدِّ ، وَرِعَايَةِ حُرْمَةِ الصَّاحِبِ والعَشِيرِ فِي حَيَاتِهِ وَمَمَاتِهِ ، وإكْرامِ أَهْلِ الصَّاحِبِ » .

فَقَالَ : اللَّهُمَّ هَالَةُ (١) بِنْتُ خُوَيْلِدٍ »، فَغِرْتُ؛ فَقُلْتُ : وَمَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ، فَأَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا »(٢).

وعَنْهَا - أَيْضًا - قَالَتْ : مَا غِرْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ - ﷺ - مَا غِرْتُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ ، وَمَا رأيْتُهَا ، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يُكْثِرُ ذِكْرَهَا ، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ : كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرأَةٌ إِلا خَدِيجَةُ!، فَيَقُولُ: « إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ(٣)، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ (٤) » (٥).

---

(١) قَوْلُهُ : « اللَّهُمَّ هَالَةُ » رُوِيَ بالرَّفْعِ عَلَىٰ أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ أَيْ : هَذِه هَالَةُ . وَرُوِيَ بالنَّصْبِ عَلَىٰ تَقْدِير : اجعلْهَا هَالَة .

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٣٨٢١) ، وَمُسْلِم (٢٤٣٧/ ٧٨) .

(٣) إِنَّهَا كَانَتْ ، وَكَانَتْ أَيْ : كَانَتْ فَاضِلَةً ، وَكَانَتْ عَاقِلَةً ، وَنَحْو ذَلِكَ ، يُثْنِي بأفْعَالِهَا .

(٤) وَلَدْ أَيْ : أَوْلاد ، فَالوَلَدُ يَكُونُ وَاحِدًا ، وَيَكُونُ جَمْعًا .

(٥) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٣٨١٨) .

وَفِي رِوَايَةٍ : وإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ، فَيُهْدِي فِي خَلائِلَهَا (١) مِنْهَا ما يَسَعُهُنَّ (٢) » (٣) .

وَفِي رِوَايَةٍ : قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ فَيَقُولُ : « أَرْسِلُوا بِهَا إِلَىٰ أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ » . قَالَتْ : فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا ، فَقُلْتُ : خَدِيجَةَ ؟! ، فَقَالَ : رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : « إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا » (٤) .

وَعَنْهَا ـ أَيْضًا ـ قَالَتْ : دَخَلَتِ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا . قَالَتْ فَقُلتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَقْبَلْتَ عَلَىٰ هَذِهِ السَّوْدَاءِ هَذَا الإِقْبَالَ ! .

فَقَالَ : إِنَّهَا كَانَتْ تَدْخُلُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ ، وإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ (٥) مِنَ الإِيمَانِ » (٦) .

---

(١) خَلائِلَهَا : جَمْعُ خَلِيلَةٍ ، وَهِيَ الصَّدِيقَة .
(٢) يَسَعُهُنَّ ـ بالفَتْح ـ يَكْفِيهِن .
(٣) أَخْرَجَهُ البُخَارِي (٣٨١٦) ، وَمُسْلِم (٢٤٣٥ / ٧٤) .
(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِم (٢٤٣٥ / ٧٥) .
(٥) العَهْدَ هُنَا : رِعَايَةُ الحُرْمَةِ والمَوَدَّةِ حَالاً بَعْدَ حَالٍ .
(٦) « صَحِيحٌ » أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ فِي « المُسْتَدرك » (١ / ١٥) ، وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ ، وَقَالا : لَيْسَتْ فِيهِ عِلَّةٌ ، والطَّبَرَانِيُّ فِي « الكَبِير » (٢٣ / ١٤) .

وَعَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ إِذَا أُرِيَ بِالشَّيءِ يَقُولُ : « **اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ بَيْتِ فُلانَةَ ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَةَ خَدِيجَةَ ، اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ بَيْتِ فُلانَةَ ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّ خَدِيجَةَ** »(١) .

تَمُرُّ الصَّبَا(٢) صَفْحًا(٣) بِسُكَّانِ ذِي الغَضَا(٤)
وَتَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهُبَّ هُبُوبُهَا
قَرِيبَةَ عَهْدٍ(٥) بِالحَبِيبِ ، وَإِنَّمَا
هَوَىٰ كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيبُهَا

---

(١) « صَحِيحٌ » أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي « الأَدَبِ المُفْرَدِ » (٢٣٢) ، والحَاكِم فِي « المُسْتَدرك » (٤ / ١٧٥) ، وصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ ، وَصَحَّحَهُ ـ أَيْضًا ـ الأَلبَانِيُّ فِي « الصَّحِيحَة » (٢٨١٨) .

(٢) الصَّبَا ، بِزِنَةِ العَصَا ـ رِيحٌ طَيِّبَةٌ مَهَبُّهَا مِنَ الشَّرْقِ ، وَالتَّثْنِيَةُ صَبَوَانِ ، وَصَبَانِ ، وَالجَمْعُ صَبَوَاتٌ ، وَأَصْبَاءٌ .

(٣) صَفْحًا أَيْ مُعْرِضَةً .

(٤) الغَضَا ـ بِزِنَةِ العَصَا ـ : شَجَرٌ خَشَبُهُ فِيهِ صَلابَةٌ ؛ لِذَا يَبْقَىٰ جَمْرُهُ طَوِيلاً ، وَاحِدَاتُهُ غَضَاةٌ ، وأَهْلُ الغَضَا : أَهْلُ نَجْدٍ لِكَثْرَتِهِ هُنَالِكَ .

(٥) العَهْدَ : الإِلْتِقَاء .

فَيَالَهُ مِنْ وَفَاءٍ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ ! ، ولا غَرْوَ (١) فَقَدْ وَصَفَهُ رَبُّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم (٤) ﴾ [القلم : ٤] .

[٩] أنَّ جميع أولاد رسول الله ﷺ منها إلا إبراهيم .

[١٠] انحصار نسل رسول الله ﷺ فيها إلى يوم القيامة:

إنَّ آل بَيْتِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - كُلّهم مِنْ فَاطِمَةَ ، وفَاطِمَةُ مِنْ خَدِيْجَةَ ، فَانْحَصَرَ نَسْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - فِيْهَا إِلىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ، فَيَالَهَا مِنْ مَزِيَّةٍ جَلِيْلَةٍ ! .

مَتَىٰ أَحْصَيْتُ فَضْلَكِ فِي كَلامٍ
فَقَدْ أَحْصَيْتُ حَبَّاتِ الرِّمَالِ
وَإِنَّ بِهَا وإِنَّ بِهِ لَنَقْصاً
وَأَنْتِ لَهَا النِّهَايَةُ فِي الكَمَالِ !

---

(١) لا غَرْوَ - بالفَتْح - لا عَجَبَ .

وفاتها - رضي الله عنها -:

بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ بِنَحْوِ شَهْرَيْنِ (١) تُوُفِّيَتِ الطَّاهِرَةُ خَدِيجَةُ مُتَأَثِّرَةً بِالحِصَارِ الَّذِي أَرْقَدَهَا عَلَىٰ فِرَاشِهَا تُعَانِي المَرَضَ الشَّدِيدَ.

وَكَانَتْ وَفَاتُها فِي رَمَضَانَ لِسَبْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْهُ (٢) سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ البِعْثَةِ، قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلاثِ سِنِينَ (٣)، وَقَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلاةُ» (٤). (٥)،

---

(١) وَقِيلَ: بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ، وَلَعَلَّ الرَّاجِحَ مَا أَثْبَتْنَاهُ؛ لأَنَّ أَكْثَرَ المَصَادِرِ نَصَّتْ عَلَىٰ مَوْتِهَا فِي رَمَضَانَ، وَأَبُو طَالِبٍ مَاتَ - عَلَىٰ الرَّاجِحِ - فِي رَجَبٍ؛ لأَنَّ أَكْثَرَ المَصَادِرِ مُتَّفِقَةٌ عَلَىٰ أَنَّ مَوْتَهُ كَانَ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنَ الخُرُوجِ مِنَ الشِّعْبِ، وَأَنَّ مُدَّةَ الحِصَارِ ثَلاثُ سِنِينَ، وَأَنَّ بَدْءَ الحِصَارِ كَانَ لَيْلَةَ هِلالِ المُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ، فَمَوْتُهُ - إِذًا - فِي رَجَبٍ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ البِعْثَةِ.

(٢) «أَزْوَاجُ النَّبِيِّ - ﷺ -»، (ص٦٥).

(٣) «الإِصَابَة» (٤/٢٨٣)، «والاسْتِعَاب» (٤/٢٨٩)، وقَدْ ثَبَتَ هَذَا فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» حَدِيثَ (٣٨٩٦).

(٤) يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ، أَمَّا أَصْلُ الصَّلاةِ فَقَدْ وَجَبَ فِي حَيَاةِ خَدِيجَةَ.

(٥) «السِّيَر» (٢/١١١)، و«طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ» (٨/١١٨)، و«الإِصَابَة» (٤/٢٨٣).

وَهِيَ بِنْتُ خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً (١) .

وَدُفِنَتْ بِالحَجُونِ (٢)، (٣)، وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - فِي قَبْرِهَا (٤)، وَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ الصَّلاةُ عَلَىٰ الجَنَازَةِ سُنَّةً (٥) .

وَلَقَدْ أَطْلَقَ النَّبِي - ﷺ - عَلَىٰ العَامِ الَّذِي تُوُفِّيَتْ هِيَ وَعَمُّه فِيْهِ اسْمَ (عَامِ الحُزْنِ) ؛ لِشِدَّةِ مَا كَابَدَ فِيْهِ مِنَ الشَّدائِدِ بِمَوْتِهِمَا .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : « تَتَابَعَتْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - المَصَائِبُ بِهُلْكِ خَدِيْجَةَ ، وَكَانَتْ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ ، يَشْكُو (٦) إِلَيْهَا » (٧) .

---

(١) « طَبَقَات ابْن سَعْدٍ » (٨/١٨) ، وَ« أنسَابُ الأشْرَاف » (١/٤٠٦) .
(٢) الحَجُون - بِزِنَة الرَّسُول - ﷺ - : جَبَل بِمَكَّةَ ، وَهِيَ مَقْبَرةٌ .
(٣) « السِّيَر » (٢/١١١) .
(٤) « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعد » (٨/١٨) ، و« الإِصَابَةُ » (٤/٢٨٣) .
(٥) « طَبَقَاتُ ابْن سَعْد » (٨/١٨) ، و« الإِصَابَةُ » (٤/١٨) ، و« أنْسَابُ الأشْرَاف » (١/١٤٠٦) .
(٦) وَفِي بَعضِ النُّسَخِ : « يَسْكُنُ » .
(٧) « سِيْرَةُ ابْن هِشَامٍ » (١/٣٠١) .

وَبَعْدَ مَوْتِهَا وَقَعَتْ حَادِثَةُ « الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ » ؛ فَكَأَنَّ اللهَ أرادَ أنْ يُعَلِّلَ نَبِيَّهُ ، وَأَنْ يُطَيِّبَ قَلْبَهُ ، وَيُذْهِبَ عَنْهُ الحُزنَ بِتِلْكَ الحَادِثَةِ الجَلِيْلَةِ .

مَاتَتِ الطَّاهِرَةُ خَدِيْجَةَ ، ولَكِنْ مَكَارِمهَا مَا مَاتَتْ، بَلْ ظَلَّتْ - وَسَتَظلُّ - سَاطِعَةً عَلَىٰ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ ، تَرْوِيْهَا الأَجْيَالُ جِيْلاً بَعْدَ جِيْلٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأَرْضَاهَا ، وَجَعَلَ جَنَّاتِ الفِرْدَوْسِ مُنْقَلَبَهَا وَمَثْوَاهَا ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ - لا مَحَالَةَ - بِخَبَرِ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ ، حَيْثُ بَشَّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لا صَخَبَ فِيْهِ وَلا نَصَبٍ .

الطَّاهِرَة

فهرس

رقم الصفحة

* المُقَدِّمَةُ ٣
* خَدِيْجَةُ الطَّاهِرَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدٍ القُرَشِيَّةُ الأَسَدِيَّةُ ٦
* نَسَبُهَا - رضي الله عنها - ٦
* مَوْلِدُهَا ونَشْأَتُهَا - رضي الله عنها - ٧
* زَوَاجُهَا - رضي الله عنها - ٨
* قِصَّةُ الزَّوَاجِ المُبَارَك ١١
* وَلَدُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - ١٤
* فَضَائِلُهَا - رضي الله عنها - ١٥
[١] أَنَّ جِبْرِيلَ - عليه السلام - أَبْلَغَهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا بوَاسطَةِ النَّبِيِّ - ﷺ - ١٥
[٢] أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - أُمِرَ أن يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّة مِنْ قَصَب ١٦
[٣] أَنَّهَا مِنْ أَفْضَلِ نِسَاءِ العَالَمِينَ وكُمَّلِهِنَّ ١٨

[٤] أنَّهَا خَيْرُ نسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ ١٩
[٥] أنَّهَا مِنْ أَفْضَلِ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَمِنْ سَيِّدَاتِهِنَّ ٢٠
[٦] أنَّهَا أَوَّلُ مَنْ أَجَابَ إِلَىٰ الإِسْلام ، ولَهَا مَقَامُ صِدْقٍ فِي أَوَّلِ البَعْثَةِ ٢٢
[٧] مُبَادَرَتُهَا الدَّائِمَةُ إِلَىٰ مَرْضَاتِهِ - ﷺ - وَبَذْلُهَا نَفْسَهَا وَمَالَهَا لَهُ ٢٩
[٨] أنَّهَا كَانَتْ أَحْظَىٰ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَه ٣٢
(أ) أنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ ٣٢
(ب) كَثْرَةُ ذِكْرِه - ﷺ - لَهَا وثَنَائِه عَلَيْهَا بَعْدَ مَوْتِهَا ٣٣
(جـ) إِكْرَامُهُ - ﷺ - أَهْلَهَا ، وَبِرُّهُ صَدَائِقَهَا بَعْدَ مَوْتِهَا ٣٩
[٩] أنَّ جَمِيعَ أَوْلادِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - مِنْهَا إِلا إِبْرَاهِيمَ ٤٣
[١٠] انْحِصَارُ نَسْلِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ٤٣
* وَفَاتُهَا - رضي الله عنها - ٤٤
* الفهرس ٤٧

من إصداراتنا

للأبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحارثي

* فن الحوار.
* طريقنا للقلوب.
* ملك القلوب.
* تسهيل البلاغة.
* كيف تنال محبة الله.
* الخطاب البليغ في جماعة التبليغ.
* الصحيح من الأثر في خطب المنبر.
* حادي الصديق إلى بيت الله العتيق.
* الأخلاق بين الطبع والتطبع.
* المنتقى من الأحاديث القدسية.
* نزهة الأحباب شرح منظومة الاداب.
* رسالة إلى ولدي.. من تصاحب؟.
* صلاة المسلم فضائل وأحكام.
* تهذيب الآداب الشرعية.
* آداب التعامل مع الفتن.
* ظلمات الظلم.
* نعمة الأخوة.
* منتقى الأشعار.
* تحفة الخطيب (أصول الخطابة - آدابها - صفات الخطيب).
* التاج المفقود.
* منتقى الفوائد ١/٣.
* منتقى الأمثال.
* آداب الطعام.
* آداب الضيافة.
* الطاهرة ﷺ.
* الصديقة ﷺ.
* تاج المروءة.
* الفرح العظيم.
* الأدب مع الوالدين.

توزيع في القاهرة: العربية للتوزيع خلف الجامع الأزهر

ع الإمام محمد عبده - أول درب الأتراك - ت: ٠٠٢٠٢/٢٥١٢٠٦٢١

داركم المتميزة

دار الإيمان ١٩،١٧ شارع جليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
لتوزيع والنشر والتوزيع
تليفون/فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٠٥٤١١٩١٠-٠٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

دار القبلة